المَوتُ الاختياريّ -رحلة العبور نحو الحقيقة-

الشيخ الدكتور محمد نمر[١]

ملخّص

إنّ الهدف من هذه المقالة، بيان ماهيَّة الموت المَعنوي في علم الأخلاق الإسلامي، وما له من ارتباط بالموت الحقيقيّ وعالم البرزخ وتجرُّد النَّفس وعالم المثال، وبيان أنواع الموت المعنوي ونظرة علماء الأخلاق والحكمة المُتعالية له؛ باعتبار أَنَّ هذا المفهوم يُعدُّ من جوهر عمل السَّالك في طريق الوصول إلى الله -سبحانه وتعالى-، كما ستُبيّن هذه المقالة علاقة الموت الاختياريّ بالموت المعنويّ، وما هي مراتب الموت الاختياريّ وأنواعه، وكيف استعان علماء الأخلاق بالموت الأصغر لشرح مفاهيم الموت الأكبر، وما هي أهم الفروقات في طرح مسائل الموت المعنويّ بين علماء الأخلاق والحكمة المُتعالية، وتختتم المقالة بعرض أهميَّة علاج الخوف من الموت خلال معرفة مَناشِئه وأسبابه، ومعرفة كيفيَّة العلاج من خلال ما قدَّمه عُلماء الأخلاق في سياق شرحهم للموت والنَّفس والخوف.

الكلمات المفتاحية: الموت المعنوي، الموت الاختياري، الخوف من الموت، الموت الأصغر، الموت الأكبر.

١ - باحث في مركز الأبحاث والدراسات التربوية، أستاذ جامعي وحوزوي.

مُقَدّمَةٌ:

يُعتبر مفهــوم الموت المعنوي من أهــم المباحث لدى علماء الأخلاق؛ حيــثُ ارتبط عندهم بمقامــات الفناء والتَّجرُّد، والتَّحرُّر من العلائق الدُّنيويَّة، تمهيدًا لبلوغ الحياة الحقيقيَّة الَّتي تقوم على البقاء بالله، فالحياة الحقيقيَّة في نظرهم ليست هي الحياة البيولوجيَّة، بل تَحصل بعد موت النَّفس عن الدنيا وتعلُّقاتها، وهي ليســت إلَّا بالموت عن الكثرة والهَوى؛ إذ بها تنكشف حقيقةُ البقاء[١].

وإذا كان الموت الطبيعي هو انقطاعُ العَلاقة بين النَّفس والبدن، فإنَّ الموتَ المعنويَّ هو انقطاع النَّفس عن التَّعلُّقات النَّفسيَّة والشَّهوات الحيوانيَّة والأوهام الحسيَّة، لتمضي في سَيرها التَّكامليّ نحو العُقول المُفارِقة والنُّور الإلهــيّ، فيكون الموت المعنويُّ أعلى درجات الموت الاختياريّ وأكثرها عُمقًــا وهو نتيجة له؛ باعتبار الموت الاختياريّ الجانــبُ العمليُّ من الموت المعنويّ؛ حيثُ يصل العبد إلى فناء الكثرة والذَّات النَّفســيَّة، أي فناء العبد عن شهود نفسه، وانعدام إرادته وحوله وقوتــه، وتحقيق العدم المعنويّ في مُقابل الوُجود الحقّ لله -تعالى-، ودوامه في حضرةِ الحــقّ؛ بحيثُ لا يرى إلَّا الله، ولا يســمع إلَّا الله، ولا يُحبُّ إلَّا اللــه. فيبدأ العبدُ بقطع العلائق القلبيَّةِ مع النَّــاس والدُّنيا، ويُخالف هوى النَّفس ورغباتِها وشــهواتِها، ويُفني الصّفاتِ البشريَّةَ كالكبر والحسد والعُجب، ويَشعر بأنَّ وُجودَه ليس له حقيقةٌ قائمةٌ أمام وُجود الحقّ[٢].

ويــرى (المُلا صدرا) المــوتَ المعنويَّ بوصفــه تَجرُّدًا وجوديًّــا للنَّفس عن العلائــق الماديَّة والمعنويَّــة؛ بحيثُ تنتقل النَّفس من مرتبة الوُجود النَّاقص الماديّ إلى مرتبة الوُجود التَّامّ العقليّ

١ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٩، ص ١٦٥.
٢ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٢، ص ٦٤٣.

والرَّوحانيّ، عبر سلوكٍ إراديّ مستمرٍّ، وقد تميَّز (الملا صدرا) في الحِكمة المُتعالية بإعطاء الموت المعنويّ بُعدًا وجوديًّا من خلال نظريَّته في الحركةِ الجوهريَّة، حيثُ اعتبر أنَّ النَّفس في سيرها الوجودي تتحوَّل من مرتبة المادَّة والمِثال إلى مرتبة العقلِ الخالص، ولا يتمُّ لها ذلك إلَّا عبر المَوت المعنويّ الذي به تتحرَّر من ظلمات الطَّبيعة، وتدخلُ في النُّور العقليّ، حتَّى تصير «رَّوحانيَّة بالفعل»، وتتحقَّق بالبقاء الحق[١].

إنَّ الموت المعنويَّ عند علماء الأخلاق ليس لحظةً واحدةً أو مقامًا ثابتًا، بل هو سيرٌ متدرّجٌ عبر مراتب تُنقّي النَّفس وتُطهّرها حتَّى بلوغ الفَناء الكامل والبقاء بالحق، يبدأ من الانقطاع الدنيا، وصولاً إلى الفَناء عن الكثرة؛ حيثُ يفنى العبد عن شعوره بوجوده الشَّخصيّ، فلا يرى إلَّا الله، ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ [الرحمن: ٢٧][٢]؛ «حيثُ تكمل النَّفس في مراتب التَّجرُّد، وتصير بالفعل ما كانت بالقُوَّة، وتتحرَّر عن قُوى البدن ورذائل الطَّبيعة، وتتَّصل بالعقل الفعَّال اتصالَ الفَيض والإشراق، فيصير عقلُها بالفعل من عقله، ووجودُها النُّوري من نوره، فتحيا بالحياة العقليَّة الكاملة، وتبقى بوُجودٍ سرمديّ لا يعتريه الفساد ولا العدم»[٣]. وعليه، فإنَّ دراسةَ الموت المعنويّ تكشف عن العَلاقة العميقة بين السُّلوك الخُلُقيّ والتَّحوُّل الوُجوديّ في علم الأخلاق الإسلاميّ؛ حيثُ هناك تلازمٌ بين تزكية النَّفس وتكامُل النَّفس وترقّيها، وبين إدراك حقيقة النَّفس وتجرُّدها، وصولاً إلى الحقيقة الإلهيَّة.

وتُساهم معرفة حقيقةِ الموت في فَهم مباحث لها علاقة بأزليَّة النَّفس وعالم البرزخ والجسم المثاليّ، كما تُساهم هذه المعرفة، في حلّ مُشكلة الخوف من الموت الَّتي هي حالةٌ عامَّة عند أغلَب النَّاس؛ حيثُ يدرك النَّاس معنى الموت وحقيقته، وأنَّه مرحلةٌ لابدَّ منها في مسير تكامُل الإنسان، وأنَّه انتقال إلى مرحلةٍ أعلى وليس فَناءً.

سنُحاول في هذه المقالة، استعراض ما جاء في تُراث علماء الأخلاق حول موضوع المَوت وتعريفه، والموت المعنويّ وما يتعلَّق به من نتائج، مع التَّركيز على طُروحات (ابن عربي) و(الملا صدرا).

---

١ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٩، ص ١٤٥.

٢ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٤، ص ٢١٠.

٣ - محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج ٩، ص ١٧٠.

أَوَّلًا: المَوتُ في القُرآن الكَريم:

استُخـدم لفظ الموت في القرآن الكريم في معان عدّة منها: المعنى الحقيقيُّ وهو ضدُّ الحياة، أي خروج الروح من الجسد، ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥].

واستُخدم بمعنى الضَّلال والكُفر، وموت القلب عن الحق ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْـمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**﴾ [النمل: ٨٠]، ويكون بمعنى الحُزن المُكدّر للحياة، نحو قوله -تعالى-: ﴿**يَتَجَرّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ**﴾ [إبراهيم: ١٧].

لذلـك، اعتبر القُرآن الكريم الإنسـانَ المؤمنَ حيًّـا، والكافرَ ميّتًا ﴿**يُخْرِجُ الْـحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾ [يونس: ٣١]؛ حيثُ فُسّرت بخروج المؤمن من الكافر، أي ولادة المُؤمن من أبٍ كافرٍ[١]. فالحياةُ الفعليَّة هي حياة الإنسان للآخرة، والعمل من أجل رضا الله -تعالى- والقرب منه، في مُقابل الكافر الـذي يعتقد ويعمل بخلاف مـا يُريده الله، فيكون مصيره العـذاب في الآخرة فهو يفتقد للحياة الحقيقيَّة، أي حياة القلب والإيمان، حتى لو كان حيًّا بالجسد ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فموتهم بمعنـى انقطاعهم عن مصدر الحياة الذي هو اللـه -تعالى- وعدم الارتباط فيه، والغفلة وغياب الإدراك وعدم الاستجابة لدعوة الحـقّ ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثَانيًا: المَوتُ عندَ علماء الأخلاق

يَتجـاوز مفهومُ الموت عند علماء الأخلاق الفَهم الماديَّ للموت باعتباره مُجرَّد انقطاع الحياة الجسديَّة، فالموت وجودٌ آخر ونشأة ثانية وانتقالٌ من دار إلى دار، وليس بفَناءٍ محض. فهو ولادةٌ ثانيةٌ، يُولد العبـد فيها إلى عالم آخر كان محجوبًا عنه في حياته الدُّنيويَّة[٢]. وهو انتقالٌ وجوديٌّ من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى، والإنسان في مسيرة وُجوده في حركة جوهريَّة دائمة نحو الكمال، والموت هو مجرَّد انتقال لتلك الحركة من نشـأة الدُّنيا إلى نشـأة الآخرة[٣]. والموتُ ليس طارئًا

١ - راجع: ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل، ج ١٢، ص ٢٤٥.

٢ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٣، ص ١٠.

٣ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ، ج٩، ص ١٥.

على الوُجـود، بل هو نتيجةٌ طبيعيَّة لحركـة المادَّة والرُّوح. فالإنسـان يتكامل وجوده بالموت، كما يتكامل الجنين بالولادة، ولو لم يكن الموت لما اكتملت حقيقة الإنسان؛ فبه تتحقَّق غايته، وينكشف له كماله[١].

لذلك، فالموت هـو: تحوُّلٌ في مراتب الإدراك والوُجود، وعبورٌ من عالم الشّـهادة إلى عالم الغَيـب، ومن الوُجود المقيَّـد إلى الوجود المطلق، وانتقالٌ من عالم الحِـسّ والظَّاهر إلى عالم الباطن والحقائق المُجرَّدة، ومن الحياة الفانية إلى الحياة الأبديَّة الخالدة، ومن الظُّلمة إلى النُّور، ومن الحجاب إلى الكشـف[٢]، وهو سفرٌ من الكثرة إلى الوحدة بحسب تعبيراتهم[٣]. فالإنسان مُقيَّد بالجسد في عالم الدُّنيا، والموت يُحرّره من القيود الدُّنيويَّة ويجعله يتَّصل بالحقيقة الإلهيَّة.

كـما أنَّ أحـدَ أهمّ المفاهيـم الخُلُقيّة هو «الموت قبـل الموت»، والمَقصود به مـوت الأنانيَّة والشَّهوات قبل المَوت الجسديّ،؛ حيثُ يتمكَّن الإنسان من كشف الحجاب عن الحقيقة الإلهيَّة وهو لا يزال حيًا. وهي دعوة للسُّـمو الرُّوحي، والتَّجرُّد عن التعلُّقات الدُّنيويَّة، من خلال مُفارقة الأوصاف الذميمـة والعيش بالحقائق الكريمـة قبل الموت الطبيعيّ[٤]، كـما يُعتبر الموتُ هو الرجوع إلى المصدر الأوَّل، أي العودة إلى الله، وهو عَين الحياة الأبديَّة[٥].

وبعد الموت، تتكشَّف للإنسان الحقائق التي كانت محجوبة عنه في الدُّنيا، بالاستفادة من الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فإنّ الموت هو رفع الحجاب، والمُشـاهدة للمعنى المُجرَّد عن المادة. فما دام العبد في جسده، فهو محجوب عن إدراك حقائق الأشياء، فإذا مات وانكشف عنه الغطاء، أبصر وأدرك ما كان عنه محجوبًا؛ حيثُ يُدرك السَّالك بعد موته الحقائقَ الإلهيَّة التي لم يكن يراها وهو في قَيد الجسد[٦].

ويمُكن ملاحظة بعضَ الفُروقات بين علماء الأخلاق في مقاربتهم للموت، وما يرتبط به بحسب

---

١ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ج٨، ص ٢٤٥.

٢ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٢، ص ٦٤٣.

٣ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج ٩، ص٣٢.

٤ - راجع: محيي الدين ابن عربي: فصوص الحكم، ص١٤٨.

٥ - راجع: محيي الدين ابن عربي: فصوص الحكم، ص١٤٨.

٦ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٢، ص٦٤٣.

رؤيتهم، وبحسب مشاربهم، فماهيَّة الموت عند (الملا صدرا) تحوُّل جوهريٌّ وجودي، وانتقالٌ طبيعيٌّ في سلسلةِ الحركةِ الجوهريَّة من النَّقص إلى الكمال، وعند (ابن عربي) رفعُ الحجابِ عن العبد ورؤية الحقيقة، وانتقال إلى كشـف المعنى وبداية الوصال، وعند غيرهما، فناءٌ عن النَّفس وبقاءٌ بالحقّ، والتَّخلُّص من الصّفات البشريَّة، والتَّحقُّق بالصّفات الإلهيَّة، أمَّا الهدف من الموت عند (المـلا صدرا) فهو كمالُ النَّفس وتجرُّدها النهائيّ عن المادَّةِ لتَحقُّق البقاء الرَّوحانيّ، وعند (ابن عربي) اللقاء بالمحبوب (الله)، والاتحـاد بالحقائق العُليا، وعند غيرهما، تحقيقُ التَّوحيد والوِصال الأبديّ بالحبيب الإلهيّ.

هذا كله في تفسـيرهم للموت الطَّبيعـيّ، ولعلماء الأخلاق مُصطلحٌ آخـر للموت هو الموت الاختياريُّ.

ثَالثًا: المَوتُ الاختِيَاريُّ:

يُعتَـبر الموت الاختيـاريُّ عمليةً إراديَّة يقوم بها الإنسـان العارف أو السـالك في حياته الدُّنيا، يتخلَّى فيها عن شهواتِه وأهوائه وتعلُّقه بالعالم الماديّ، فيموت عن نفسه الأمَّارة بالهَوى، قبل أن يموت جسـده بالموتِ الطَّبيعيّ (القهريّ). وهو موتٌ رمزيٌّ رُوحيٌّ، هدفه بلوغ الحياة الحقيقيَّة، أي الحياة باللَّه وفي اللـه. ويربط (الملا صدرا) الموتَ الاختياريَّ بالحركة الجوهريَّة للنَّفس؛ إذ تتحوَّل النَّفس بالتَّدريج من المرتبةِ الجُسمانيَّة إلى الرَّوحانيَّة ، ويتدرَّج الإنسان من العَلائق الحَسيَّة إلى التَّجـرُّد العقليّ، يُصبح الموت الاختياريُّ هو التَّجرُّد الإراديُّ للنَّفس عن المادَّة[1]. وعند تتبُّع أقوال علماء الأخلاق والحُكماء، نجد أنَّهم يستخدمون مصطلح الموتِ الاختياريّ في مرتبتين:

١. «**المرتبـة الأولى:** وهي المرتبة الأعلى من الموت الاختياريّ، من خلال الوُصول إلى مرتبةِ العقل المُسـتفاد، والوصول إلى مقام الفناءِ في العقلِ العمليّ. والعقل المُستفاد هو أعلى مراتب العقلِ النَّظريّ، وهو العقلُ الَّذي يتَّصل بالعقلِ الفعَّال، ويكتسب منه المَعقولات الكاملة؛ بحيثُ يصير العقلُ النَّظريُّ، والعلوم والمعقولات الحاصلة فيه صورةً واحدةً بالفعل»[2].

١ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٩، ص ٤٥.

٢ - ابن سينا : الشفاء ، قسم النفس، ص ٢٢٠.

فيكون المـوت الاختياريُّ، عبارة عن تحريـر النَّفس من علائق المادَّة، والعقل المُسـتفاد هو تحقُّق النَّفس بأعلى مراتـب الكمال العقليّ، ممَّا يُؤدّي إلى بلوغ الغايـةِ النّهائيَّة للنَّفس النَّاطقة عند (الملا صدرا)[١].

٢. **المَرتبةُ الثَّانيةُ:** وهي مرتبةٌ أقل من المرتبةِ الأُولىَ، وأدنى منها، وهي السعيُّ لقطع علاقة الرُّوح بالبدن دون الوصول إلى المرتبة الأعلى، فيصل السَّالك على مرتبةِ خلع البدن، وهي مرتبة شبيهةٌ بالنَّوم، ولكنَّ السَّالك يستطيع السَّيطرةَ على نفسه وعلمه، بينما النَّائم لضعف نفسه عادةً لا يمكنه تفسير ما يراه من الحقائق والكُشوفات.

وقد قُسّم الموتُ الاختياريُّ إلى أربعة أقسام :[٢]

أ. الموتُ الأحمر، والمقصود منه هو الجهاد الأكبر بالمجاهدات الرُّوحيَّة، وسُمّي بالموت الأحمر؛ لأنَّه يُشـبه الموت الذي في حالات الحرب، التي تسـيل من منازعاتهما الدّماءُ الحمراءُ.

ب. المـوتُ الأبيضُ، والمقصود منه الجوع فإنَّه موت أيضًا، والمقصود من الجوع هو عدم التُّخمة، لكي لا يأخذه النُّعاس والكسل، بل يأخذ منه ما يتقوَّى به على العبادة من دون أن يكون همَّه الامتلاء .

ج. المَوتُ الأخـضر، والمقصود منه عدم الاعتنـاء بالظَّاهر مـن التَّجمُّل والتَّزيُّن في البدن واللباس؛ فإنَّ ذلك يُشـغله عن النَّفس والباطن، وسُمّي بالأخضر من الجَمال والتَّفتُّح للزرع، وليس منه التَّنظيف والتَّطيُّب للمستحبات .

د. الموتُ الأسودُ، والمقصود منـه تحمُّل اللائمة والعِتاب في سبيل الوُصول إلى المعشوق والحبيب.

رَابعًا: أزليَّة النَّفس في ظِلّ فَهم علماء الأخلاق للمَوت

اختَلف علماء الأخلاقَ والفَلاسفَة في تَفسـير أصل ائتـلاف النَّفس معَ البدن، وكيفيَّة حدوثه من خلال فهمهم للنَّفس والموت، فبعضهم يعتبر بأنَّ الله -تعالى- قد خلق النَّفس الإنسـانيَّةَ مُنفصلةً

١ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة،ج٨، ص٢٠٠.

٢ - راجع: عبد الأعلى السبزواري: شرح دعاء كميل، ص ٥٧-٥٨.

عن البدن، ثُمَّ جعل البدن تحت سُلطانها، فالنَّفس هي التي تحمل البدن وليس العكس. ويستدلُّون بروايات كثيرة مفادها، أنَّ الله خلق الأرواحَ قبل الأجساد بألفي عام[١]، وما يصل إليه السالك من موت إرادي وخلع للبدن دليل على هذا التَّفسير؛ حيث يرى السَّالك نفسَه منفصلةً عن الجسد.

وبعضهم يعتبر بأنَّ امتلاك الإنسان للنَّفس ليس إلاَّ تطوُّرًا جديدًا له، بحسب التَّكامل الذي يتمُّ له بقُدرة الله في الرَّحم، خلال ما يُسمَّى بمرحلة «ولوج الروح» والمُعبَّر عنها في القرآن بقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤][٢]. فالنَّفس تسير بطريقة تكامُليَّة من الماديَّة إلى اللا ماديَّة، مع أنَّها مُنبثقةٌ في بداية خلقها من الجسم والبدن، فيعتقد أنَّ النَّفس تقع أوَّلاً في مرتبة جماديَّة، ثمَّ تنتقل إلى المرحلة الجَنينيَّة، ثمَّ إلى المرحلة النباتيَّة، ثمَّ الحيوانيَّة فالنَّاطقة، وتُصبح بعد تكاملها نفسًا إنسانيَّة، وبعد هذه المرحلة قليلٌ من النَّاس يستطيع بلوغَ مرحلة النَّفس القُدسيَّة، وهو يخالف بذلك فلسفة المشَّائين في أنَّ النَّفس جوهرٌ له حالة ثابتة. فالنَّفس عند علماء الأخلاق ليست حادثةً تنتهي بالموت، بل هي حقيقةٌ أزليَّةٌ مستمرَّةٌ في السَّير الوُجوديّ، والموت حلقةٌ من حلقات ترقّيها نحو الكمال. والموتُ لا يخلق للنَّفس وُجودًا آخر، بل يكشف أزليَّة وجودها الحقيقي الذي كان محجوبًا بالبدن[٣].

فتبيَّن أنَّه بالرَّغم من الاختلافات بين علماء الأخلاق والفلاسفة في تفسير طبيعة النفس، وهل هي حادثة أم لا، وهل هي بطبيعتها ماديَّة أم ليست ماديَّة، ولكنَّهم يتَّفقون على بقاء النَّفس وأبديَّتها، وهذا ما ينسجم مع تفسيرهم لحقيقة الموت.

خَامسًا: الجسمُ المثاليّ والحَياةُ البرَزَخيَّة بنَظر علماء الأخلاق

البرْزَخ في اللُّغة: الحاجز بين شيئين[٤]، وهو العالَم المُتوسّط بين الموت والقيامة، يُنعَّم فيه الميّت أو يعذَّب حتَّى تقومَ السَّاعة، قال -تعالى-: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقال الإمام الصَّادق عليه السلام في تفسير الآية: «البرزخ: القبر، وفيه الثَّواب

١ - راجع: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٥٨، ص١٣٢.
٢ - راجع: كاظم الحائري: أصول الدين، ص٣٢٠.
٣ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج ٣، ص١٢٢.
٤ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٣٣٣

والعقـاب بين الدُّنيا والآخرة»[١]. والرُّوايات الواردة في البرزخ، تُعبرّ بوضوح أنَّ المُراد من القبر، هو النشأة الَّتي يعيش فيها الإنسان، بعد الموت وقبل البعث، وإنَّما كُنّي بالقبر عنها؛ لأنَّ النُّزول إلى القبر يُلازم أو يكون بدءًا لوقوع الإنسان فيها. والظَّاهر من الرُّوايات تعلُّق الرُّوح بأبدان تُماثل الأبـدان الدُّنيويَّة، لكن بلطافة تُناسب الحياةَ في تلك النَّشـأة، فتتعارف النُّفوس فيما بينها بذلك القالب، وبسببه يكون لها حظٌّ من المادّيَّة ليست كمادّيَّة البدن المفهومة لدينا هنا، ويتحقَّق بذلك أخذ الحيّز والحلول في المكان والتحرُّك وما إلى ذلك، ويجري لها ما يجري من الثَّواب والعقاب أو السُّـؤال والجواب عن طريق القالب المِثاليّ، فعن أبي عبـد الله عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك، يروون أنَّ أرواح المؤمنـين في حواصل طيور خُضر حول العرش فقال: لا، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رُوحه في حَوصلَة طير، ولكن في أبدان كأبدانهم»[٢]. ورواية أبي بصير قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنَّا نتحدَّث عن أرواح المؤمنين أنَّها في حَواصِل طيور خُضر ترعى في الجنَّـة وتأوي إلى قناديل تحت العرش، فقال: لا، إذا ما هي في حواصل طير. قلت: فأين هي؟ قال: في روضة كهيئة الأجساد في الجنَّة»[٣].

يُثبت علماء الأخلاق الجسـمَ المثاليّ في عالم البرزخ ويختلفون في تصويره؛ حيثُ يربطونه بمفهوم العالم الوَسيط بين الدُّنيا والآخرة، فيكون للإنسان وجودٌ بينيٌّ، لا هو ماديٌّ محض، ولا هـو رَّوحانيٌّ محض. ويُعرّفه (ابن عربي) بأنَّه عالمُ الخيال المُطلق؛ حيثُ تتحقَّق الصُّور الذّهنيَّة بشـكلٍ واقعيّ، ويمُكن للأرواح أن تتجسَّد وتتشـكَّل وفق استعداداتها، هو عالم تخيُّليٌّ حقيقيٌّ يتجلّى فيه الإنسـان بعد الموت وفق صوره الذّهنيَّة. فهو عالم خيال مُتجسّد، وهو المنزل الأوَّل من منازل الآخرة؛ حيثُ يرى الإنسانُ في نومه وبعد موته صُورًا قائمةً بنفسها، تُخاطبه ويخاطبها، وهي أجساد لا شـك فيها. فيقول: « فالعموم عند كشـف الغطاء بالموت وانتقالهم إلى البرزخ يكونون هنالك، مثل ما هم في الدُّنيا في أجسامهم سواء، إلَّا أَنَّهم انتقلوا من حضرةٍ إلى حضرةٍ، أو من حكم إلى حكم»[٤].

---

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٦، ص٢١٤.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٣، ص ٢٤٤، باب آخر في أرواح المؤمنين، ح١.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٣، ص ٢٤٥، باب آخر في أرواح المؤمنين، ح٧.

٤ - محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج ٣، ص٢٨٨.

أمَّا البدن المِثاليّ، فهو عبارةٌ عن جسمٍ برزخيّ خياليّ، يتشكَّل وفق الأعمال والأحوال الباطنيَّة للإنسان. إنَّه ليس ماديًّا بالمفهوم الفلسفي، لكنَّه يظهر في عالم البرزخ على هيئة محسوسة.

ومـن خصائص هذا البدن أنَّه ينتمي إلى عالم الخيال أو عـالم المِثال، وهو واسطة بين الرُّوح والمادَّة، ولا يتبَع قوانين الفيزياء الطَّبيعيَّة، لكنَّه يُدرك بالحِسّ الباطنيّ في عالم البرزخ، يتغيَّر وفق حال الإنسان الرُّوحي، فالصَّالحون يظهرون في صُورٍ حسنةٍ، بينما الطَّالحون يظهرون في صُور مُشوَّهة، بل هو تجلٍّ رُّوحي في صورةٍ محسوسة[١].

بينما يَعتبر (الملا صدرا) الجسم المِثاليّ كيانًا غير ماديّ يتَّحد مع النَّفس بعد الموت، ممَّا يُفسّر كيفيَّة استمرار الهُويَّة الشَّـخصيَّة في الحياة الآخرة، حيثُ تنتقل النَّفس من عالم المادَّة إلى عالم المِثـال؛ حيثُ تَتلبَّس ببدن مثاليّ يُناسب استعداداتها، وهو بـدنٌ حقيقيٌّ لكنَّه ليس عُنصريًّا.[٢] وهذا الجِسـمُ ليس ماديًّا، لكنَّه يحمل خـواصَّ المادَّة (الامتداد، الصـورة)، يتميَّز بكونه مُتغيّرًا بحسـب استعداد النَّفس، متأثّرًا بالحركة الجوهريَّة، التي تجعل الإنسـان ينتقل من طور الوجود الماديّ إلى طور الوُجود العقـليّ. أي أنَّ النَّفس تتكامل حتَّى تمتلك بدنًا مناسبًا لها في الآخرة. ليس وهميًّا أو مجرَّد خيال، بل حقيقةٌ وُجوديَّة تختلف عن الأجسام الماديَّة. يرتبط بمبدأ التَّجرُّد التَّدريجـيّ؛ حيثُ يكتسـبُ البَدن صِفات أكثر رَّوحانيَّة مع استمرار تطـوُّر النَّفس. وقد استطاع (الملا صدرا) إثبات الإدراكات الجُزئيَّة، والآلام واللذَّات النَّفسيَّة بدون البدن الماديّ الدُّنيويّ، واعتـبر أنَّ الإدراك مجرَّدٌ "إطلاقًا" ولا علاقة له بالبدن، خلافًا لتصوُّر المشَّـائين الذين يرَوْن أنَّ الإدراك الحِسيَّ والخياليَّ متعلّقٌ بالبدن، أو يحصل بتدخُّل منه[٣].

من هنا، تأتي تجربة الموت المعنوي الذي هو عبارة عن تحرُّر واتّصال، فيندرج السالك في حياة رُّوحيَّة خالصة وهو لا يزال في الدُّنيا. وبالتَّالي، حين تأتيه الوفاة الجسـديَّة يكون قد أُنزل مسبقًا إلى مرتبة البرزخ وألِفها، بل وصار يحيا في حضرة الحقّ. مثل هذا السـالك إلى الله يصفه (ابن

١ - راجع: محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج ٣، ص٢٨٩.

٢ - راجـع: محمـد تقي مصباح اليـزدي: "نقد نظرية ملا صـدرا حول المعاد الجسـماني" (مجلة نصوص معاصرة)، ص٣٤٧.

٣ - راجـع: محمـد تقي مصباح اليـزدي: "نقد نظرية ملاّ صـدرا حول المعاد الجسـماني" (مجلة نصوص معاصرة)، ص٣٤٧.

عربي) بأنَّه حيٌّ في الدُّنيا والبرزخ معًا، فجسده بين النَّاس وقلبه في الملكوت. لذا، تكون وفاة جسده مجرَّد نقلةٍ واعيةٍ من حضرة الشّهادة إلى حضرةِ البرزخ، ثم الآخرة دون معاناة تردُّد أو تعلُّق. وعلى عكس ذلك، مَن لم يمُت معنويًّا في حياته وبقي أسيراً لشهواته، فإنَّه عند الموت يفقد فجأة كل ما تعلَّق به، فيدخل البرزخ في حال من الضَّياع والاضطراب؛ لأنَّه لم يأنس بالحقّ من قبل[١].

وهذا التَّحوُّل العميق للنَّفس يجعلها مستعدةً للبرزخ وما بعده، بل يجعلها وكأنَّها تعيش البرزخ وهي في الدُّنيا. فالسالك إلى الله يموت عن الخَلق، أي يكسر قيود النَّفس الأمَّارة، فينكشف له عالم البرزخ والمِثال وتأتلف روحه مع حقائق ذلك العالم. أمَّا عامَّة الخَلق الذين لم يُحقّقوا هذا الموت الإراديَّ، فسيمرُّون بتجربة البرزخ لأوَّل مرة عند وفاتهم، وتتفاوت تجاربهم هناك بحسب نقاء نفوسهم وتعلُّقها السَّابق بالرَّوحانيَّات أو الماديَّات.

سَادسًــا: كَيفَ اســتعانَ علماء الأخلاق بمفَاهيم المَــوتِ الأصغر لشَرحِ مَفاهيَم المَوت الأكبر؟

هناكَ آياتٌ وروايَاتٌ تُشبّه الموتَ بالنَّوم أو تعتبر النَّوم موتًا، لذلك سُمّي النَّوم بالموت الأصغر، يقول الله -تعالى-: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الزمر: ٤٢].

وسُئل الإمام الباقر عليه السلام ما الموت؟ قال عليه السلام: "هو النَّوم الذي يأتيكم كلَّ ليلة، إلَّا أنَّه طويل مدَّته لا ينتبــه منه إلَّا يوم القيامة، فمن رأى في نومه مــن أصناف الفرح ما لا يقادر قدره، ومن أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره، فكيف حال فرح في النَّوم ووجل فيه، هذا هو الموت فاستعدّوا له"[٢].

وعن الباقر عليه السلام أيضًا قال: «ما من أحد ينام إلَّا عرجت نفسه إلى السَّماء وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشَّمس، فإذا أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النَّفس، وإذا أذن الله في ردّ الروح أجابت النَّفس الرُّوح، وهو قوله سبحانه: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...**﴾ فمهما رأت في ملكوت الســماوات فهو ممَّا له تأويل، وما رأت في ما بين السَّــماء والأرض فهو

١ - محمد حسين الطهراني: معرفة المعاد، ج١، ص٤٩.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الانوار، ج ٦، ص ١٥٥.

ما يخيّله الشيطان ولا تأويل له"[١].

أمَّا تجلّيات الموت الأصغر عند علماء الأخلاق فلا تنحصر بالنَّوم، بل يُعبّرون عن مرحلة الفناء في الموت الاختياريّ أيضًا بالموت الأصغر، لما لها من الكشف عن حقيقة الموت الأكبر، حالة الفَنـاء هذه هي محوٌ لهُويَّة العبد في نور الله؛ بحيثُ يفقـد التَّمييز بين ذاته والحق، وكأنَّه يذوق المـوتَ وهو ما زال حيًّا. فالذي يَفنى عن نَّفسـه يبقى بالله، مُحقّقًا حيـاةً روحيَّة خَالصةً. وهذه التَّجربة تمنح السـالك إلى الله معرفةً مباشرةً بحقيقـةِ البرزخ والآخرة؛ إذ من مات عن هواه فقد حيِيَ بهدى الحقّ ومعرفته.

وكذلـك النَّوم هو حالة انتقال الرُّوح من عالم الحِسّ إلى عالم البَرزخ؛ حيثُ يعيش الإنسـانُ تجربةً شـبيهةً بالموت، وما يحدث للرُّوح أثناء النوم، شـبيهٌ بما يحدث لها عند مفارقة الجسـد نهائيًّا، فيقولون إنَّ المرء إذا انتقل إلى البرزخ بالموت الأصغر (النَّوم) أو بالموت الأكبر فإنَّه يرى في عالم البرزخ أشياءً كان عقله يستحيلها في اليقظة، لكنَّها تُصبح محسوسةً له هناك، يقول (ابن عـربي): «ألا تراه إذا انتقل بالموت الأكبر أو بالموت الأصغر إلى البرزخ، كيف يرى في الموت الأصغر أمورًا كان يحيلها عقلاً في حال اليقظة، وهي له في البرزخ محسوسة كما هي له في حال اليقظة ما يتعلق به حسـه فلا ينكره فيما كان يدل عليه عقله مـن إحالة وجود أمر ما يراه موجودًا في البرزخ، ولا شـكَّ أنَّه أمر وجودي تعلَّق الحِسُّ به في البرزخ فاختلف الموطن على الحِسّ، فاختلف الحُكم فلو كان ذلك محالاً لنفسه في قبول الوجود لما اتَّصف بالوجود في البرزخ، ولما كـان مدركًا بالحِسّ في البرزخ بل قد يتحقَّق بذلك أهل اللّٰه حتى يدركوا ذلك في حال يقظتهم، ولكن في البرزخ فهم في حال يقظتهم كحال النَّائم و الميّت في حال نومه وموته»[٢].

لذلك يرى علماء الأخلاق أنَّ من يتذوَّق الموتَ الأصغر (سواء نومًا أم فناءً روحيًّا) يتهيَّأ بشكلٍ أفضل لمُواجهة الموت الأكـبر؛ لأنَّ روحه أصبحت مُعتادةً على مُفارقة عالم المادَّةِ، والاتصال بعالم الروحانيات.

وفي ردّه على فسـلفة المشَّـائين، استخدم (مُلا صدرا) النَّوم كشـاهدٍ على استقلال الرُّوح عن البدن، فشـبَّه المَوت بالنَّوم الطَّويل والنَّوم بالموتِ القصير؛ حيثُ الفارق بينهما هو مدَّة مفارقة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٢٧.

٢ - محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج ٤، ص ٩٩.

النَّفس للجسـد، فالموت ليس إلَّا انفصالُ النَّفس عن البدن عندما تستكمل استعدادها، وهذا الانفصال نفسُـه يقع جزئيًّا كلَّ ليلةٍ في نوم الإنسـان، ثمَّ تعود الروح إلى البدن بإذن الله، فيكون النَّـوم دليلاً واقعيًّا على إمكان بقاء النَّفس ووعيها في عالم آخر (عالم الرُّؤيا) رغم تعطُّل الحِسّ الجسـديّ مؤقّتًا، وهذا شـبيهٌ تمامًا بما يحدث في الموت الأكبر، سوى أنَّ الرُّجوع بعدها ليس ممكنًا[1].

والرُّؤى والأحلام التي تراها النَّفـس خلال النوم، هي دليلٌ عقلي عند (ملا صدرا) على وجود عالم برزخيّ مِثاليّ مُسـتقل عن الحواس الظَّاهريَّة، ستذهـب إليه النَّفس عند المُفارقة الكُبرى. لقد استفاد (ملا صدرا) من مثل هـذه الظَّواهر لبرهنة خُلود الرُّوح وتجرُّدها، فلو لم تكن للرُّوح حياةٌ مستقلَّةٌ عن البدن، لمَا أمكنها الإدراك ورؤية الصُّور في المنام عند تعطُّل الحواس. وهكذا يتَّضـح أنَّ النَّوم عند (ملا صدرا)، كما عند (ابن عربي)، يُعتـبر توطئةً لمعرفة إمكانيَّة الحياة بعد الانفصال عن الجسد.

سَـابعًا: مسألةُ الخَوفِ مِن المَوتِ: الأَسبَابُ والعِلاُج بحَسبِ رُؤيَة عُلمَاءِ الأَخلاَق

تختلف تصوُّرات النَّاس عن الموت ومدى خوفهم منه رغم معرفتهم بحتميَّته، فكثير من النَّاس تخـاف الموت؛ لأنَّها تجهله أو لأنَّ تَصوُّرَاتها عن الموت مُخيفة، أو لاعتقادِهم بأنَّ الموتَ فناءٌ وعدم والإنسـان بطبيعته يُحبُّ البَقاء. وقـد تعرضت الآيات القُرآنيَّة والرُّوايـات الشَّريفة لفكرة الموت، وصوَّرته بصُورٍ مُختلفة، فتمَّ تصويره وتشـبيهه بالنَّوم كما عـن الإمام الباقر عليه السلام عندما سُئـل: ما الموت؟ قال عليه السلام: «هو النَّوم الذي يأتيكم كلَّ ليلـة إلَّا أنَّه طويلٌ مُدَّته، لا يُنتبه منه إلى يوم القيامة»[2]، وعبرَّ عن الموت بأنَّه جِسر بين الدُّنيا والآخرة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّـة الكافر، والموتُ جسر هؤلاء إلى جنَّاتهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم»[3]. وعبرَّ عنه الإمام الحُسين عليه السلام بالقنطرة: "ما الموت إلَّا قنطرة تعبر بكم من البُؤس والضَّرَاء إلى الجنان

١ - راجع: محمد بن إبراهيم الشيرازي:الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٨، ص ٢٠٥.
٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الانوار، ج ٦، ص ١٥٥.
٣ - محمد بن علي بن بابويه الصدوق: معاني الأخبار، ص ٢٨٩.

الواسعة، والنَّعيم الدَّائم، فأيُّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر"[١].

وقد استفـاد علماء الأخلاق من رؤيتهم حـول الموت من الآيات والرُّوايـات، واعتبروه ممرًّا ضروريًّـا لتكامل الرُّوح، فالموت ليس فنـاءً للحياة، بل انتقالٌ في الوجـود، بل انتقالٌ من منزل الدُّنيا إلى منزل الآخرة، تنتقل به الرُّوح إلى مستوى أرقى من الوجود. إنَّه نقلةٌ وجوديَّة يخلع فيها الإنسان رداء الجسد الضَّيق لينطلق في فضاء أوسع. لذا، يعبرّ (مُلا صدرا) عن الموت بأنَّه وضع النَّفس قدمهـا على مدخل جديد للتقدُّم والتَّكامل. هذه الرُّؤيـة تجعل الموت حدثًا إيجابيًّا في مسار تطوُّر النَّفس، فلا يعود سببًا للهلع بل خُطوة طبيعيَّة نحو كمالها الموعود.

وتبقـى الرُّوح حيَّةً بعد مُفارقة البدن، لكنَّ الله يحجب إدراكنا عنها فلا نراها، ويَستشـهد (ابن عربي) بالنَّص القُرآني عن الشهداء بأنَّهم ﴿**أحياء عند ربهم يُرزقون**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ونهى الله عن وصفهم بالأموات، فهم ما زالوا أحياءً، لكن بشكل آخر. يقول (ابن عربي): "الميّت عندنا يعلم من نفسـه أنَّه حي، وأنت تحكم عليه بأنَّه ليس بحيّ جهلاً منك"[٢]، هذه النَّظرة الفلسـفيَّة العميقةُ تُحوّل الموتَ من عدم مُخيف إلى استمرار للحياة بشكل آخر.

وقد طرح علماء الأخلاق حلاًّ لمسألة الخوف من الموت من خلال الموت الاختياريّ والفناء؛ حيثُ يفقد المُريد إحسـاسه بالذَّات الفرديَّة، فيموت معنويًّا عن تعلُّقاته الدُّنيويَّة وهو ما زال حيًّا في الدُّنيا. هذا الموت المعنويُّ الاختياريُّ يجعل الموتَ الطَّبيعيَّ سهلَ القبول؛ إذ يكون الإنسان قد جرَّب «فناء الأنا» وتذوَّق البقاء الرُّوحي في الحضرة الإلهيَّة. يشير (ابن عربي) إلى أنَّ السالك إلى الله يُصبح وكأنَّه "ميت بين يدي الغاسل"[٣]، أي مستسلم تمامًا لإرادة الحقّ، وهذا يشير إلى حالـةٍ من نزع التَّعلُّق، ورسوخ التوكُّل تجعل موت الجسـد أمرًا لا يُخيفه. فإذا ذاق حالةَ الموت المعنـويّ وأحسَّ بحلاوة القُرب الإلهيّ، لن يعود الموتُ مخيفًـا بل يُصبح مرغوبًا كوصال مع الحقّ. أمَّا من الجانب الرُّوحي، فإنَّ إيمان السـالك بعالم الـبرزخ واللقاء الإلهي، يجعله يتُوق إلى ما بعد الموت بدلاً من أن يهابه. بالفناء تتحقَّق البقاء بالله، فيُدرك السَّالك أنَّ حياته الحقيقيَّة مُسـتمرة بعد الموت في حضرة الحق. وبالتَّـالي، ينتفي سبب الخوف. يطمئن (ابن عربي) أيضًا

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٤٤، ص ٢٩٧.

٢ - محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٤، ص ٢٩٠.

٣ - محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٤، ص ٢٩٢.

بـأنَّ التَّصرف في عالم البرزخ والآخرة بيد الله مباشرةً، فلا ظُلم هناك؛ حتى إنَّ تصاوير مثل وزن الأعمال أو ذبح الموت يوم القيامة، هي تمثُّلات مِثاليَّة لحقائق معنويَّة، تهدف لطمأنةِ الرُّوح بأنَّ العدالةَ الإلهيَّة والرَّحمة تحكم ذلك العالم[١].

ويَذكر (ابن مسكويه) عدة أسباب للخوف من الموت عند الناس[٢]:

١. الجَهل بحقيقة الموت، فالجاهل يظنُّ الموتَ فناءً مطلقًا للذَّات، فيحسب أنَّه إذا انحلَّ البدن وبطل تركيبه، فقد انحلَّت ذاته وانعدمت نفسه بالكامل، وهذا التَّصوُّر الخاطئ ناشئٌ عن الجهل ببقاء النَّفس بعد مُفارقة الجسد.

٢. توهُّم الألم العظيم في الموت؛ حيثُ يظنُّ البعض أنَّ للموت ذاته ألمًا شـديدًا يفوق آلام المرض التي قد تسـبقه وتكون سببًا فيه، فيرتعبون من الموت اعتقادًا بأنَّه حدثٌ مؤلمٌ جدًّا في جوهره.

٣. الخوف من عقاب ما بعد الموت: يعتقد بعض النَّاس أنَّ الموت سيعقبه عقاب إلهي على ذنوبهم، فيرتعدون خوفًا من هذه العقوبة، يوضح (ابن مسكويه) أنَّ هذا الخوف في حقيقته ليس خوفًا من الموت نفسـه، بل خوف المرء من ذنبه ومن عدل الله؛ فهو يخاف عاقبة أعماله السيّئة، وبالتالي فالمرء في الواقع يخاف ذنوبه وعقابه المستحق، لا مجرد مفارقة البدن.

وهذا ما تدلُّ عليه الرُّوايات منها: سُئل الإمام الحسن عليه السلام: يابن رسول الله ما بالنا نكره الموت، ولا نحبُّه؟ فقال الإمام الحسن عليه السلام: "إنَّكم أخربتم آخرتكم وعمَّرتم دُنياكم، فأنتُم تكرهون النَّقلة من العمران إلى الخراب"[٣].

٤. الحيرةُ والجهـلُ بالمصير: يتملَّك البعض الخوف؛ لأنَّهـم مُتحيّرون، لا يدرون ماذا سيُلاقيهم بعد الموت.

٥. التَّأسُّف على الدُّنيا والتَّعلُّق بها: من أسباب الخَوف أيضًا الأسف على مفارقة ما يحوزه المرء من مال ومقتنيات ومُتع دنيويَّة، فالمحب للدُّنيا يخشى فُقدانها بالموت.

---

١ - محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، ج٤، ص ٢٩٣.

٢ - ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٢١٧،٢٢٠.

٣ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٦، ١٢٩.

وقدَّم (النراقي) رُؤيةً في الخوف ضمن أمراض النفس، التي يشترك فيها العقل (القُوَّة العاقلة) والغضب والشَّهوة، مُعتبراً بعض الخوف فضيلة (خوف الله)، وبعضه رذيلة يجب معالجتها. والخوف من الموت عند (النراقي) يُعد من الخوف المذموم إذا منع الإنسان من السَّعي الخُلُقيّ، أو ولَّده الوهم وضعف الإيمان. وقدَّم (النراقي) أسبابًا مُتقاربة ممَّا قدَّمها (ابن مسكويه) عن الخوف من الموت، من حب الدُّنيا والتَّعلُّق بالماديَّات، والضَّعف الرُّوحيّ ونقص التَّوكُّل، وضعف اليقين وافتقار القلب إلى الشجاعة الإيمانيَّة، والأوهام والعلل الخياليَّة، والخوف من العقاب مع سوء الاستعداد[1].

ولعلاج الخوف، يُقدم علماء الأخلاق كـ(النراقي) بعض الأمور منها: مُحاولة معالجة مناشِئ الخوف، ومنها ما له علاقة بالعلم وفهم حقيقة الموت، وماهيَّة النَّفس وما سيجري على الإنسان بعد الموت من خلال الاستفادة من الآيات القرآنية والرُّوايات، والعلوم التي تعنى بذلك. وهذا يحتاج إلى تزكية النَّفس والتَّسامي الخُلُقيّ والتَّوبة عن الذنوب، والتَّخفف من التَّعلُّق الدُّنيوي، والتَّأمُّل في عدل الله ورحمته، والتَّسليم بحتميَّة الموت وإدراك عدم جدوى الخوف منه، ومجاهدة الأوهام وتقوية النَّفس واستبدال خوف الموت بخشية الله. وينصح (النراقي) بتقوية إرادة الإنسان وروحه؛ بحيثُ لا يتأثَّر بالخوف من الظَّلام أو المجهول؛ لأنَّ شجاعة القلب تُكتسبُ بالتَّمرين والتَّوكُّل. فكُلَّما طرد المرء الخيالَ المُرعب، واعتصم بالواقع وبالثّقة بالله، تضاءلت مخاوفه الخياليَّة. يستدلُّ (النَّراقي) بالآية: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]، للدلالة على أنَّ المعرفة باللَّه تُولّد خشية إيجابيَّة تُطهّر القلبَ، ومن عَمُر قلبه بخوف الله ومحبته أمِنَ من كل خوف آخر. وهكذا يُصبح الشَّوق إلى لقاء الله أقوى في النَّفس من رهبة الموت نفسها. ويرى (النراقي) أنَّ اشتياق المُؤمن للموت للانتقال إلى جوار ربّه علامة إيمانه الصَّادق، بناءً على فَهم الآيات والرُّوايات: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٩٤]. وعن الإمام الجواد عليه السلام: «أمَّا إنَّهم لو عرفوا ما يُؤدّي إليه الموتُ من النَّعيم لاستدعوه وأحبُّوه أشدّ ما يَستدعي العاقل الحازم الدَّواء لدفع الآفات واجتلاب السلامة»[2].

ولعلاج الخوف من الموت فوائدُ تربويَّةٌ مهمة للإنسان، فعدم الخوف من الموت يُمكن أن

١ - محمد مهدي النراقي: جامع السعادات، ج١، ص٢٠٠-٢٠٤.

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٥٦.

يكون له أثرٌ تربويٌّ إيجابيٌّ على حياة الإنسان؛ حيثُ يُنظر إلى الموت باعتباره جزءًا طبيعيًّا من دورة الحياة، ممَّا يُعزّز السُّلوكيَّات الإيجابيَّة، والتَّفكير المُستقيم، ويُصبح وسيلةً لتحفيز الأفراد على العمل الصَّالح والابتعاد عن المعاصي، ممَّا يُؤدي إلى تحسين السُّلوك والأخلاق، وعلاج القلق والاضطرابات النَّفسيَّة، وتعزيز الشُّعور بالطُّمأنينَة، وتخفيف الاكتئاب، ويُساهم في بناء شخصيَّة مُتوازنة ومستقرَّة. كما يُسهم عدم الخوف من الموت، في تعزيز التَّربية الجهاديَّة، وتعزيز رُوح الشَّجاعة والتَّضحية والإيثار، والعمل لتحقيق الأهداف الإلهيَّة مع تحمُّل وعزم وإصرار وصبر، ورفع الرُّوح المعنويَّة في المجتمع.

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ:

القرآن الكريم.

١. ابـن فارس: معجم مقاييـس اللغة، تحـ. عبد السـلام محمد هارون، دار الفكر، دمشـق، ١٩٧٩.

٢. أحمد بن محمد ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا ط، ١٩٧٨.

٣. كاظم الحائري: أصول الدين، دار البشير، بيروت، ط٤، ١٤٣٢ هـ.

٤. محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا ط، ١٩٩٢.

٥. محمـد بن علي بن بابويه الصدوق: معاني الأخبار، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٩٩٠.

٦. محمـد بن يعقوب الكليني: الكافي، تحـ.: محمد جـواد الفقيه، دار الأضواء، بيروت، لا ط، ١٩٩٢.

٧. محمد تقي مصباح اليزدي: نقد نظرية ملاّ صدرا حول المعاد الجسـماني، مجلة نصوص معاصرة ،العدد ٣٢-٣٣، ٢٠١٤.

٨. محمـد مهدي النراقي: جامع السـعادات، تحـ.: محمد كلانـتر، ، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف، لا ط، ١٩٦٨.

٩. محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، ٢٠٠٦.

١٠. محيـي الدين ابن عربي: فصوص الحكـم، تحـ.: أبو العلا عفيفـي، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، ٢٠٠٣.

١١. الملا صدرا (محمد بن إبراهيم الشيرازي): الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا ط، ١٩٨١.

١٢. ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل، دار الأميرة، بيروت، ٢٠٠٦.